كلمة التحرير

التربية: البعد الحاضر الغائب

من الطبيعي أن تخصص مجلة في مستوى مجلة "إسلامية المعرفة" في غاياتها ومقاصدها عدداً خاصاً بالتربية: فالتربية هدف وغاية في تكوين الشخصية الإنسانية عقلياً ونفسياً ووسيلة، وأداة لتحقيق تلك الغاية، وهي نهج وسبيل لا يمكن تجاوزه لأولئك الذين يريدون بناء أمم، أو تجديدها إذا طال على الأمة الأمد وقست منها القلوب، وتراجعت فيها الحضارة، وتخلف فيها العمران.

لقد نص علماؤنا الأقدمون: أن شرف العلم وفضله مرتبطان بالنظر إلى شرف موضوع العلم وفضله. وموضوع "التربية" هو الإنسان وتزكيته وتطهيره وتأهيله لأداء دوره في إعمار الكون وبنائه، وتجديد ذلك العمران إذا أصابه التقادم والبلى. فالإنسان هو المنشيء لحالة العمران بما حباه الله من قوى وعي وحرية اختيار وقدرات ومؤهلات تمكنه من الوفاء بمتطلبات الاستخلاف والعمران.

وكل هذا الذي مِنحه الإنسان لا يساعده -كما هو- على تحقيق حالة "الفاعلية والقدرة" على أداء "الفعل العمراني"، بل العكس هو الأصح؛ إذ قد يقوده ذلك إلى التخريب والعبث في الأرض والإفساد فيها، إذا لم يأخذ الإنسان حظه من التربية، ونصيبه من التعليم والتجريب والتدريب واكتساب الخبرات والمعارف والمهارات. ولذلك كان أول ما بدأ الله به آدم بعد خلقه والعهد إليه بالاستخلاف، تعليمه الأسماء -كلها- ثم توجيهه لأداء المهام التي خلق من أجلها، وذلك بالجمع بين قرائتين، في كتابين: كتاب مسطور ينـزل به الوحي على رسل الله وأنبيائه الذين اصطفى ليعلموا الناس وليقدموا لهم النموذج الصالح والأسوة الحسنة، ويرشدوا مسيرتهم في أداء ما أوكل إليهم؛ وكتاب مخلوق مبسوط منشور بين أيديهم، عليهم أن يمارسوا فيه فعل العمران بعد أن يعرفوه، ويتدربوا على التعامل معه وفقاً لتوجهات الهداية التي وصلتهم على أيدي رسل الله.

ومنذ بدء الخليقة والتعليم والتربية يسيران جنباً إلى جنب لتحقيق غاية الحق من الخلق. بل إن البعض يطرح رأياً طريفاً حول "معصية آدم والهبوط من الجنة" أو ما يعرف في

الأديان الأخرى "بالخطيئة الأولى" خلاصته: أن الإنسان علم الأسماء، وعرف صيغ الأمر والنهي، لذلك ساغ أن يقال له: "لا تقرب هذه الشجرة" لكنه أخذ العلم -وحده- ولم يترب على الالتزام بمقتضياته، ولأن التربية لم تحدث، أو لأنها انفصلت عن العلم لم يكن العلم –وحده- قادراً على الحيلولة بينه وبين الوقوع في الخطيئة.

والتربية عملية مركبة معقدة، من حيث وسائلها وأدواتها ومصادرها وخطواتها ومناهجها، وما تقتضيه كل خطوة من تلك الخطوات لبلوغ أهدافها في الأفراد والجماعات والشعوب. لذلك فإن الأمم تحدد عادةً ما تريده من التربية، فتبني نموذجها الذي تريد أن تراه في الواقع وفقاً لرؤيتها الكلية في الحياة والإنسان والكون، وتصور ذلك النموذج في سائر الأحوال التي تتوقعها؛ فتصوره فرداً وأسرة ومجتمعاً وحاكماً ومحكوماً وطالباً وباحثاً ومعلماً وبانياً وهادماً؛ تتصوره في علاقاته مع نفسه وربه وبيئته، وما جاوره وما بعد عنه. ثم تبنى النظريات والوسائل والأدوات التي تكفل لها تكوين إنسانها وفقاً لتصورها ذلك، وهي لا تنقطع عن المراجعة والتعديل والتغيير والحذف والإضافة وفقاً للنتائج التي تراها في الواقع. فتأخذ التربية شكل عمل دائم وشغل مستمر لدى فصائل الأمة كلها، لا لدى مؤسسات معينة أو متخصصة فقط. ونظراً لتركيب العملية التربوية وتعقيدها وارتباطها بكل أنواع المعارف والخبرات والتجارب والفلسفات والنظريات إضافة إلى الأديان والأخلاق، فإنها عمل أمة وتوجيه نخبة.

إن نهوض الأمم وسقوطها وتقدمها وتراجعها منوط بالتربية، فإن الأمة إذا نجحت في برامجها التربوية حققت أهدافها، وإن هي أخفقت تراجعت عن أهدافها. والأمة الإسلامية نموذج حي شاهد على صدق ذلك فبالرغم من كثرة أبنائها، ووفرة مواردها، وتميز مواقعها، وغنى تاريخها، وكمال دينها فإنها في درك من السوء يستدر أحياناً شفقة خصومها، وعطف أعدائها، والسبب الأساس وراء ذلك انهيار دعائم نظم التربية فيها، وتذبذبها، وعدم وضوحها، فلم تعد الأمة قادرة على تكوين الإنسان الذي يقوم بمهام العمران لا في قابلياته، ولا في دوافعه ولا في استعداداته.

ومن هنا فإنه لا أمل في إعادة بناء الأمة، وتجديد ما بلي من طاقاتها بدون إعادة النظر في فلسفتها التربوية ورؤيتها الكلية ونظرياتها في إعداد إنسانها عقلياً ونفسياً لتعود إليه قابلياته وقدراته ودوافعه وفاعليته الحضارية العمرانية، ويغادر مستنقع الغثائية.

والعدد الذي بين أيدينا يقدم لنا حصيلة متميزة من توضيح بعض ما أشرنا إليه.

فالدكتور سعيد إسماعيل علي يتناول في بحثه المستفيض "مركزية القضية التربوية في فهم واقع الأمة وأسباب تخلفها" فيؤكد على أهمية الإنسان باعتباره صانع الحضارة، ومؤسس العمران. ثم يعرج على توضيح صور من مشكلات الواقع التربوية فيبدأ بما سماه "التقصير العلمي والتقني"، وبين قصور "العملية التعليمية" وعدم كفايتها في رفد المهمة التربوية بما تشتد حاجتها إليه من العلوم والمعارف لبناء "الفلسفة التربوية العامة." ثم يتحدث عن "الاستبداد" وآثاره الخطيرة في إفشال العمل التربوي، فحاول أن يربط بين "الحرية" وتكوين الإنسان تربوياً وهو ربط سليم. ثم مر على "الغزو التعليمي" وما أدى إليه من قلق واضطراب وانشطار في التعليم على مستوى العالم الإسلامي كله.

ثم تعرض "للتربية الدينية المتقوصة" وأشار إلى بعض ما تعانيه المجتمعات المسلمة من سلبياتها. وفي الشطر الثاني من دراسته قدم الدكتور سعيد "معالم في الطريق التربوي للنهوض الحضاري" أكد فيه على ضرورة "التأصيل الإسلامي للعلوم التربوية" و"العدل التربوي" وما يندرج تحته من مساواة ثم "التنمية العقلية" وعرج على "التربية العمرانية" ثم وضع خاتمة لخص فيها أهم ما تناوله من نقاط مؤكداً أن مقالته محاولة بناء مقدمة لسلسلة من البحوث والدراسات التي تشتد حاجة "الفكر التربوي الإسلامي إليها".

ثم تأتي دراسة الدكتور عبد الغني عبود حول "طبيعة الخطاب التربوي السائد ومشكلاته" فيبدأ بتعريف "الخطاب التربوي" مبيناً جذور الخطاب التربوي في الأديان التي جاء بها رسل الله وأنبياؤه، ثم يقف طويلاً على بعض الآيات المتعلقة بالخطاب التربوي، التي كان لها أثرها في تراثنا التربوي، فيوضح دلالاتها وأهميتها وفاعليتها وتأثيرها في تقديم مضمون خطاب تربوي متميز. ويقترح تضافر جهود علماء الأمة لصياغة خطاب تربوية ديني قادر على إعادة الفاعلية والتأثير إلى الخطاب التربوي. ويؤكد على المتخصصين في المجالات التربوية المختلفة أن يتعاونوا مع إخوانهم من علماء الدراسات الإسلامية ودعاة الإصلاح للاستفادة بهم في صياغة ما يعدون وما يؤلفون للتغلب على حالة الفصام بين الخطاب التربوي الديني والخطاب العام.

ثم تأتي دراسة الدكتور أحمد المهدي عبد الحليم حول "السمات المنشودة في الخطاب التربوي الإسلامي" فيمهد لدراسته هذه بالإشارة إلى بعض التحديات التي تواجه الخطاب التربوي الإسلامي، فتستوقفه بعض المصطلحات المتداولة، والمفاهيم المرسلة دون تحديد دقيق فيقوم بتحديد مفهوم "الخطاب ومفهوم التربية والإسلام"، ويعرج على مفاهيم "العلم" و"العقل"، ثم يلج إلى ما سماه "التنوع الثقافي" فينطلق منه باتجاه التنويه بما كان يعرف في تراثنا بـ"المثاقفة" فيسميه بـ"التبادل الثقافي". ثم يستعرض مجموعة من السمات المنشودة في الخطاب التربوية الإسلامي: فيذكر منها تنوع الخطاب التربوي وشكله، والمواد التعليمية وحسن انتقائها والتواصل بين عناصر العملية التعليمية، وأن يتوجه الخطاب التربوية إلى الحاجات الأساسية للمتعلمين، إضافة إلى عقلانية الخطاب ومستوى لغته وتواؤمه مع الوحي. والبحث بصفة عامة حاول أن يقدم رؤية الباحث فيما ينبغي أن يتصف الخطاب التربوي به.

ثم يقدم الدكتور محمود قنبر دراسته "نحو رؤية موضوعية للتربية في التراث الإسلامي" دراسة تحليلية نقدية فتحدث -بشكل إجمالي- عن الكتابات التي ظهرت خلال النصف الثاني من القرن الماضي وصنفها في تناولها لقضايا التربية في مجالين: الأول ما سماه "بتربويات الدعوة" والثاني ما سماه "بتربويات التعليم"، وبين أن لكل من المجالين هدفاً ومادة وطريقة، واعتبر التعليم الديني وسيطاً بين المجالين. ويؤكد الدكتور قمبر على ضرورة هذا التمييز بين المجالين المذكورين، مؤكداً أن عدم التمييز بينهما تسبب في وقوع الكثيرين منهم في أخطاء تربوية كبيرة. وقد أكد –كذلك- على أن هذه الكتب -على كثرتها- لم تؤسس من الناحية المعرفية علوماً تربوية، بل انحصرت آثارها -تقريباً- في إطار الأدبيات؛ لأن جل أولئك الكاتبين -في نظره- لم يكونوا يبحثون في العلم التربوي، ولم يفيدوا أنفسهم بمناهج الدراسات التربوية المعتمدة لكي يتوصلوا إلى الحقائق العلمية التي كان ينبغي أن يجعلوا الوصول إليها غاية ومقصداً. ويرى الدكتور قمبر أن تلك الكتابات التي قام بنقدها وتحليلها لم تسهم في إحداث تحسين حقيقي للممارسات التعليمية، ولم تسر في خط تراكمي معرفي يبين اللاحق فيها على السابق، وخلص إلى أن علة المفارقة بين الفكر والعمل هي علة طبيعية في التربية، لكن ذلك كله لا يعفي التربويين من العمل المستمر والاجتهاد الدائم لإيجاد تحسين في فكرهم ودراساتهم وعدم الوقوف فيما يقدمون عند حد

معين؛ بل ينبغي أن تبقى سائر المسالك مفتوحة أمام التقدم الفكري والعلمي في هذا المجال الخطير الذي اتخذ من الإنسان موضوعاً وغاية ووسيلة.

وبعد: فإننا لا نزعم أن هذا العدد قد قال كلمة فصل في الموضوع التربوي، بل نستطيع القول بأن كل ماورد فيه يؤكد على الحاجة الماسة لإيلاء الجانب التربوي ما يستحقه من اهتمام. إن دولنا وحكوماتنا تنفق جل ميزانياتها على قضايا التسلح والإعلام في حين أن التربية -والتربية وحدها- هي التي تستحق أن تنفق فيها الأموال وتوقف عليها الجهود، إذ ما قيمة سلاح أوجهاز في يد إنسان لم تتم تربيته بحيث يستوعب أهداف أمته، ويدرك غايتها، ويؤمن برسالتها، ويتبناها ويهب ما يملك لتحقيقها؟

فنرجو أن يكون هذا العدد لبنة في البناء الكبير الذي علينا أن نشيده، لبناء "علوم تربوية إسلامية" تساعد الأمة على النهوض من كبوتها، وإقالة عثرتها.

والله الموفق.